الأبعاد الدّلالية لعناوين الكتب البلاغية (من القرن الخامس حتى القرن الثّامن الهجري)

The semantic dimensions of rhetorical books from the fifth centuryto the erghth century AH

ط. د إسلام ميلاط*

أ. د (ة) فاطمة الزّهراء صغير♣

تاريخ الإرسال: 2022/12/26	تاريخ القبول: 2023/06/21	تاريخ النشر: 2023/12/31

الملخص:

لا تزال عناوين الكتب البلاغية بشكلها الفني، وعنصرها الجمالي، علامة جوهرية في تلقي النص وفهمه، فهي عتبته، وبابه الذي لا مدخل غيره، والمتأمل في مصنفات العلماء يلاحظ دقتهم وتفننهم في صياغة العناوين، ووسم المدونات، وقد سعينا في هذا المقال إلى محاولة تجلية الأبعاد الدلالية، وإضاءة الخصائص التركيبية لعناوين المؤلفات البلاغية، في الحقبة الزمنية الممتدة من القرن الخامس إلى القرن الثامن الهجري، وبناء على ذلك ستتوقف الدّراسة أمام خمسة أعلام وهم : الخفاجي، والجرجاني، والرازي، والسكاكي، والقرطاجني، مستهدفة استنطاق ما يستتر خلف تسميات كتبهم، والوقوف عما تحمله بنيتها العميقة من أسرار المقاصد، ومعادن الدلالات.

الكلمات المفتاحية: العنوان، البلاغة العربية، المتلقي، الأسرار الجمالية، الأبعاد الدلالية.

Abstract:

Even books with rhetorical titles contain artistic elements. Ola is critical to understanding the value of the textbook because it causes people to judge students; efforts based on their skill, delicacy, or artistic ability rather than simply their entry into the composition.

*فرقة: التّعرف الآلي على المخطوط اليدوي بمخبر المعالجة الآلية للُّغة العربيّة بجامعة أبي بكر بلقايد تلمسان- milatislam682@gmail.com

♣المركز الجامعي (مغنية) تلمسان- diden.bb@hotmail.fr

We attempted to go beyond the limitations of meaning by examining semantic boundaries and touching on individual trends in literal literature from before the common period through the fifth century CE. The examination of Khafadji, El Djardjani, El Razi Sakaki, and El Kartadji, according to the study, focused on what Lakels concealed in the texts of these authors.

Key words:*Arabic, rhetorical title, Aesthetic, Secrets, Semantic, dimensions.*

*** *** ***

المؤلف المرسل: إسلام ميلاط milatislam682@gmail.com

1. مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين، ثم أما بعد:

فلا تزال عناوين الكتب تأخذ مساحة واسعة من الاهتمام بين أهل العلم والمعرفة، فهي اللبنة الأساس لسبر أغوار النص، والمفتاح للتعمق في شعابه، ومن ثم اجتهد العلماء والأدباء والشعراء والنقاد، بله المؤلفين في مختلف المجالات والميادين الإنسانية، لمحاولة صياغتها بطريقة تقنع العقل، وتفتح آفاق الفكر.

والحق أن العنوان ذو أثر بالغ في مسيرة العلوم، وبخاصة لمن رام إدراك وظائفه الجمالية، وتطلب الكشف عن خلفيته اللغوية، فدقة الدلالة التي تحملها ألفاظه، واحتماله مع المعنى المقصود لمعان أخرى تدخل تحت دائرة التأويل، كل هذه العمليات الذهنية، أو اللغوية، أو الجمالية، تجعل منه عتبة قرائية لا يمكن إغفالها.

وعلى هذا الأساس اعتنى علماء المسلمين بفقه العنوان، وتصويره في أبرع لوحة فنيّة، وحسبنا أن نقف على بعض كتب التّراث العربي لنستكشف اجتهادات واستنباطات العلماء له، وذلك إجابة عن الإشكاليّة التّاليّة:

هل اعتنى علماؤنا بتسميات كتبهم؟ فإن كان فما هي أغراضهم ومقاصدهم؟ وهل هي منسجمة مع موضوعاتها المعرفية وسياقاتها الثقافية؟

فهذا "الزّمخشري لم يسم كتابه أساس البلاغة إلّا وهو يقصد معنى لفظ الأساس، وأنّ هذه الشّذرات البيانيّة المختارة كأنّها متن بيانيّ يجب على طالب العلم أن يرتاض به، وأن يرتاض فيه، وأن يصقل به لسانه وعقله ولغته، ونفسه، لأنّ البلاغة لا وجود لها في نفس ذات حس غليظ، ولا وجود لها إلّا حين يوجد القلب الحي والنفس اليقضى، وأن مراجعة هذا الأساس هو السّبيل إلى وجود القلب الحي والنفس اليقضى"[1]، وثمة ملمح آخر يشرق به عنوان الزّمخشري، وهو أنّ أساس الدّرس البلاغي إنّما هو التمييز بين الدّلالة الحقيقية والدلالة المجازيّة لاستعمالات الكلمة في أقوال العرب، وفي القرآن الكريم الذي نزل بلغتهم، وهذه القيمة لا يتلمسها إلّا من نظر فيما وراء لغة عنوانه، وشكله الخارجي.

وفي الاتجاه نفسه سار العلامة النحوي ابن هشام الأنصاري، العالم الذي صدق قومه، فقد كتب "قطر الندى" للمبتدئين، ثم كتب "شذور الذهب" لمن خطا خطوة ثم كتب "أوضح المسالك" لمن شدا في طلب العلم ثم كتب "المغني" لمن صار من أهل العلم[2]، ولا يخفى على ذوي العقول الراجحة، والأفهام الثاقبة، ما تحمله تراكيب هذه العناوين من قيم جمالية بديعة، وتوجيهات تربوية، تعكس وعي العالم بمستويات ومقام المتلقين، الذين تتفاوت مستوياتهم ودرجاتهم من المتخصص في "مغني اللبيب إلى المبتدئ في قطر الندى" وما بينهما من مستويات.

وعلى هذا الأساس فإن خصوصية العنوان تكشف عن مسالك مرتبطة بعملية الإبداع و الابتكار، ذلك "أن المؤلف أفرغ فيه جهدا و تطلب منه اختياره، لأن صياغة عنوان أي عمل إبداعي جزء من الكتابة الفنية نظرا لما للعنوان من أهمية على المستوى الإعلامي (الإشهار) أولا، على المستوى الفكري ثانيا، وعلى المستوى الجمالي ثالثا، ونظرا إلى كل هذه الاعتبارات فإن العنوان ذو أهمية خاصة بالنسبة للمؤلف والمتلقي على السواء، لأنه جماع النص و ملخصه"[3]، وما النص إلا امتداد وتكملة له عبر التوسع فيه، وسر ذلك أنه يحوي دلالات مركزية، ترتبطه بمقصد الخطاب وغرضه وكذلك بالمتلقي.

إننا،إذن، بإزاء تعالق وتبعية بين العنوان والنص، فالبعد الدلالي في بنية وتركيب العنوان هي التي تسهل على المتلقي الوصول إلى مبتغاه، وتفتح له أفقا واسعة وتقدم له

معونة كبرى لضبط انسجام النص، وفهم ما غمض منه، إذ هو المحور الذي يتوالد ويتنامى ويعيد إنتاج نفسه، وهو الذي يحدد هوية العمل الأدبي، فهو ـ إن صحت المشابهة ـ بمثابة الرأس للجسد، والأساس الذي تبنى عليه[4]آلية فهم النص، والدلالة على محتواه لإغراء الجمهور المقصود بقراءته، ولعل ما يدعم رأينا هذا، هو تلك البحوث والدراسات اللسانية والسيميائية، التي أولت عناية كبيرة لدراسة العناوين، بل وتحليلها تركيبيا ودلاليا وتداوليا[5].

وإذا كانت المهمة الأساسية لهذه العلامة اللغوية، التي يمكن أن توضع على رأس النص لتحدد هويته، وتشير إلى مضمونه، هي إغراء القراء بالاطلاع عليه من ناحية، فقد وجب على القارئ البحث عن المرامي، والمقاصد والعلاقات، التي تكون بين العنوان والمحتوى من ناحية أخرى، وقبل أن نلج في صلب الموضوع علينا أولا أن نتعرف على مفهوم العنوان لصلته الوثيقة ببحثنا.

2. مفهوم العنوان:

1.2 العنوان مفهوما لغويا: تناول العديد من الدارسين الدلالة اللغوية للفظ العنوان، والمدقق في دلالة المفردة يجدها لا تخرج عن ثلاث مواد هي:

أ- مادة "عنن" عن الشيء يعن ويعن عننا وعنونا، ظهر أمامك، وعن يعن عنا وعنونا واعتن: اعترض وعرض، ومنه قول امرئ القيس:

فعن لنا سرب كأن نعاجه عذارى دوار في ملاء مذيل

والاعتنان الاعتراض، وكذلك العنن من عن الشيء أي اعترض.

وعننت الكتاب وأعنته لكذا، أي عرضته وصرفته إليه، وعن الكتاب يعنه عنا وعننه: كعنونه، وعنونته وعلونته بمعنى واحد، مشتق من المعنى، وقال اللحياني: عننت الكتاب تعنينا وعنيته تعنية إذا عنونته، أبدلوا من إحدى النونات ياء، سمي عنوانا لأنه يعن الكتاب من ناحيته، وأصله عنان، فلما كثرت النونات قلبت إحداها واوا، ومن قال علوان الكتاب جعل النون لاما لأنه أخف وأظهر من النون..... وقد يكسر فيقال عنوان وعنيان[6].

ب- مادة "عنا ": عنوان الكتاب مشتق فيما ذكروا من المعنى وفيه لغات: عنونت وعنيت وعننت، وقال الأخفش: عنوت الكتاب وأعنه، وأنشد يونس:

فطني الكتاب إذا أرادت جوابه واعن الكتاب لكي يسر و يكتما

قال ابن سيده: العنوان والعنوان سمة الكتاب، وعنونه عنونة وعنوانا وعناه كلاهما: وسمه بالعنوان، وقال أيضا: والعنيان سمة الكتاب، وقد عناه وأعناه[7].

ج- مادة "علن": علوان الكتاب، يجوز أن يكون فعله "فعولت" من العلانية، يقال: علونت الكتاب إذا عنونته وعلوان الكتاب: عنوانه[8].

2.2 العنوان اصطلاحًا: ورد في تعريف العنوان عدة تعريفات، من ذلك ما نقلته **بشرى البستاني** التي حاولت ضبط مفهومه، وخلصت إلى أنه "رسالة لغوية تعرف بتلك الهوية، وتحدد مضمونها، و تجذب القارئ إليها، و تغريه بقراءتها، و هو الظاهر الذي يدل على باطن النص ومحتواه"، فهو بمثابة بطاقة تعريف للكتاب، فمن خلال هذا التعريف للعنوان يتبين: "بأنه دلالة كلية تنطوي على أبعاد عميقة تحوي معاني شاملة، وهو الكلمات التي تختصر التفاصيل ، و تجمع الأشتات، وهو البداية والنهاية"[9]، وقد عرفه **ليوهويك** بأنه: مجموعة الدلائل اللسانية يمكنها أن تثبت في بداية النص من أجل تعينه، والإشارة إلى مضمونه الجمالي من أجل جذب الجمهور المقصود[10]، ويذهب **"رولان بارت"** إلى أن العناوين هي عبارة عن أنظمة دلالية سيميائية تحمل في طياتها قيما أخلاقية واجتماعية وايديولوجية، وهي رسائل مسكوكة مضمنة بعلامات دالة مشبعة برؤية العالم يغلب عليها الطابع الإيحائي.[11] في حين يرى عبد الحميد هيمة: **"أن العنوان هو نوع من أنواع التعالي النصي الذي يحدده مسار القراءة، التي يمكن لها أن تبدأ الرؤيا الأولى للكتاب"[12]**.

يلاحظ مما تقدم أن هذه التعريفات متقاربة في الدلالة على العنوان اصطلاحا، وإن اختلفت تعبيرات المعبرين عنها، فهم متفقون أن "العنوان علامة لغوية، تتموقع في واجهة النص، لتؤدي مجموعة وظائف تخص أنطولوجية النص ومحتواه، وتداوليته في إطار سوسيو- ثقافي خاصا بالمكتوب"[13].

3. أهميّة العنوان:

لا ريب أن للعناوين الموجودة في الكتب تأثيرا عظيما في توضيح دلالات النص، واستكشاف معانيه الظاهرة والخفية، إذ هي مما يعتمد عليه في معرفة متضمناته ومحتملاته من المعاني، ولذلك كان المهتمون بعلم العلامات ينظرون في معاني العناوين باهتمام وتدبر، باعتبارها العمود الذي يدور عليه النص.

من ثم فلا يمكن لقارئ أي نص أن يلج إليه دون أن يعبر على العتبة الأولى، و هي العنوان، كما لا يستطيع الداخل إلى الدار دخولها دون أن يطأ عتبتها، وهي الباب، فالعنوان هو بوابة الولوج إلى مضامين النص، و هو المفتاح الأساسي الذي ينبغي للمحلل السيميولوجي أن يتسلح به من أجل سبر أغوار النص، ومن أجل استنطاقه و تحليل رموزه و جس نبضه وترسباته و تراكيبه على جميع المستويات، ولهذا ليس من الهين على الدارس تجاهل هذه العتبة، وليس من حقه أيضا إصدار أي حكم قبل دراسة العنوان، وإمعان النظر فيه وتقصي البحث عن دلالته[14].

من هذا المنطلق احتفت الأبحاث والدراسات الحديثة بالعنوان، وبهذا استطاع أن يصبح "مفتاحا منتجا ذا دلالة، ليس على مستوى البناء الخارجي للعمل، بل يمتد حتى البنية العميقة، ويستفز فواصله ويدفع السلطة الثلاثية (المبدع ـ النص ـ المتلقي) إلى إعادة إنتاج تتيح لعوامل النص الانفتاح على أكثر من قراءة "[15] ليصبح بذلك معلما بارزا للقارئ في تحديد هوية النص.

حضي العنوان بأهمية كبرى في الدراسات السيميولوجية، إذ يعد نظاما سيميولوجيا ذا أبعاد دلالية شديدة التنوع والثراء، وأخرى رمزية، فهو عتبة النص للمتلقي، وأول لقاء مادي بين المرسل والمتلقي، فالعنوان إشارة مختزلة ذات بعد إشاري سيميائي يحمله المتلقي باعتباره مفتاحا يلج به أغوار النص قصد محاكاتها وتأويلها، وقد ظهر في الآونة الأخيرة كثير من الدراسات اللسانية والسيميائية، تهدف إلى دراسة العنوان، وتحليله من نواحيه التركيبية والدلالية والتداولية.[16]باعتباره عتبة نصية لا يمكن تجاوزها في العمل الأدبي. ناهيك عن وظائفه الفنية في مختلف الخطابات الأدبية، يقول إدريس الناقوري مؤكدا الوظيفة الإشهارية و القانونية للعنوان: تتجاوز (دلالة

العنوان) دلالاته الفنية والجمالية لتندرج في إطار العلاقة التبادلية الاقتصادية والتجارية تحديدا، وذلك لأن الكاتب لا يعدو كونه من الناحية الاقتصادية منتوجا تجاريا يفترض فيه أن تكون له علاقة مميزة، وبهذه العلامة بالضبط يحول العنوان المنتوج الأدبي أو الفني إلى سلعة قابلة للتداول، هذا بالإضافة إلى كونه وثيقة قانونية، وسندا شرعيا يثبت ملكية الكاتب أو النص وانتماءه لصاحبه ولجنس معين من أجناس الأدب أو الفن[17].

4. الأبعاد الدّلاليّة لعناوين الكتب البلاغيّة:

سنجنح في هذه الدراسة إلى الوقوف عند دلالات عناوين بعض كتب البلاغة، محاولين استنباط أسرارها من غير ألفاظها المنطوقة، في قراءة تتجلى فيها قيمة معنى المعنى، التي تلعب دورا أساسيا في فهم الدلالات العميقة للعمل الأدبي، ومن ثم مساءلتها للتوصل إلى الطريقة الفكرية التي تمخضت في عقل العالم، وهو يحاول أن يضع عنوانا لكتابه، وقد اعتمدنا على البحث اللغوي والتناسب الدلالي بين النص وعنوانه، لمحاولة إيجاد تخريجات لأسرار هذه التسميات.

1.4 سر الفصاحة:

يشوق الخفاجي القارئمن خلال عنوانه لسبر مضامينه، ويحفزه من أجل الولوج إلى أعماقه فهو يستأنس في تسمية كتابه بهذا الاسم بأحد أهم فصوله، فقد أدرج فيه مبحثا كاملا تحدث فيه عن الفصاحة وشروطها، وهي عنده الظهور والبيان.

تأمل الخفاجي وتدبر وتقصى أقوال من سبقه من العلماء من أمثال الجاحظ وأبي هلال العسكري في حقيقة الفصاحة، فوجد أن غاية ما وصلوا إليه هو القول بترادفها مع البلاغة والبيان، فدقق النظر في مقاماتها المختلفة، وتغلغل في طرائق العلماء، حتى نكت خباياها، واستطاع أن يفرق بينها و بين البلاغة، فجاء عنوان الكتاب معبرا عن المقصود، فهو يثير في المتلقي إدراك حقيقة الفصاحة، من خلال كشف خباياها، و معرفة أسرارها، وقد أشار إلى مكمن الفرق بينهما و بين البلاغة فقال: "إن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ، والبلاغة لا تكون إلا وصفا للألفاظ مع المعاني، لا يقال في كلمة واحدة لا تدل على معنى يفضل على مثلها بليغة و إن قيل فيها فصيحة،

وكل كلام بليغ فصيح، و ليس كل فصيح بليغا، كالذي يقع في الإسهاب في غير موضعه"[18]، و هذه دقائق وأسرار تفطن لها ابن سنان تتجاوز ظاهر الفصاحة إلى ما ورائها من أمور خفية.

من هذا يتبين أن عنوان الكتاب مستوحى من مادته، فلا يحتاج القارئ معه إلى تأويل في معرفة مبتغاه، وكأن ابن سنان يريد أن يقول للقارئ إني رمت بكتابي هذا أن أميز بين ألفاظ درجت على ألسنة الناس أنها مترادفة، فأردت تحقيق القول فيها، فكان غرضه من تأليفه هو معرفة حقيقة الفصاحة والعلم بسرها، وقد أجهد نفسه في بيان مقاييس الفصاحة، فقد جعل لها شروطا منها ما يتعلق باللفظة الواحدة، ومنها ما يكون في الألفاظ المنظومة بعضها مع بعض، وكان من نتيجة ذلك أن وسم كتابه بـ "سر الفصاحة".

والحقيقة أن ابن سنان كان متأثرا ببيئته، فقد انتصر بدوره إلى فكرة أبي هاشم الجبائي، والتي ترد إعجاز القرآن إلى فصاحته، فلذلك "لم يشفع في تسميته له بالبلاغة، بحيث يكون اسمه مثلا سر الفصاحة والبلاغة، ملاحظا ما شاع في بيئة المعتزلة منذ القرن الرابع الهجري من تعليل إعجاز القرآن بفصاحته"[19].

فليس عجيبا إذن أن تظهر عنونة ابن سنان موافقة لروح عصره من جهة، ولثقافته الدينية من جهة أخرى، ويلاحظ فيها الإحالة المباشرة للموضوع، وبعدها عن التكلف اللّغوي.

2.4 دلائل الإعجاز (عبد القاهر الجرجاني 471 هـ):

يشير عنوان الكتاب إلى محتوى المادة المعنونة بها، ولا يتجاوز هذا التركيب الإضافي الذي أسند فيه الجمع النكرة إلى المفردة المعرفة، فهو متآلف من كلمة "دلائل" مضافا إليها كلمة "الإعجاز" لتدل على الموضوع المراد الوقوف عنده، ومن الناحية الإعرابية نجد أن لفظة (دلائل): خبر لمبتدأ مقدر بالضمير (هذا)، وهو مضاف، و(الإعجاز) مضاف إليه، فبنية العنوان اللغوية تدل على "موضوعه ومحوره، فالدلائل جمع دليل، والدليل في كلام العرب هو المرشد، وكأن عبد القاهر يقصد بـ"دلائل

الإعجاز" الوسائل المرشدة إلى الإعجاز، والمنهج الذي يعين على الوصول إلى حقائق الإعجاز. فعنوان الكتاب إذن ينسجم تماما مع موضوعه الذي نجد فيه تفسيرا مباشرا للإعجاز، ولكنه يقدم الأدوات والوسائل والمنهج"[20].

وعبد القاهر سمى كتابه دلائل الإعجاز يعني هو دليل النبوة ، وهذا الكتاب الذي هو من أصل الدين على حد ما تدل عليه تسميته[21]، لا نجد فيه نفسا طويلا في شرح آيات القرآن الكريم، فهو لا يتخذ القرآن أساسا لبيان البلاغة والإعجاز، بل نراه يكثر الاستشهاد بكلام العرب ليشرح قضية ما، من غير أن يخص القرآن بتفصيل يبين فيه تفوقه ومنزلته وإعجازه، فلماذا إذن وسمه بهذا الاسم، يجيب أحمد بدوي عن هذا فيقول: "وربما يكون سر ذلك يعود إلى أنه أراد أن يجعل كتابه الدلائل خالصا لشرح المقياس الذي يقاس به إعجاز القرآن وهو بلاغته التي ترتفع إلى أسمى الدرجات فبين معنى البلاغة وترك للقارئ الناحية التطبيقية على القرآن"[22]، إذن ليس كتاب الدلائل في جوهره كتاب بلاغة، بل هو كتاب سعى مؤلفه إلى التنقير والبحث عن موطن الإعجاز، ومكمن التفوق الذي اتصف به القرآن الكريم، والذي جعل العرب يعترفون بعجزهم وعدم مقدرتهم على مضاهاته ومعارضته.

وعلى هذا الأساس فإن السياق الدلالي للعنوان يصبح أكثر وضوحا، فهو يوظف الشواهد الشعرية و يستعين بها كدلائل في فهم معاني القرآن خاصة، ومعاني الشعر العربي عامة، ويسعى في المقابل إلى إثبات أن بلاغة الكلام إنما تكون في الأسلوب أو الصياغة أو النظم، وأن القرآن معجز بنظمه، فاللفظ المفرد لا قيمة له في ميزان البلاغة، وفي هذا توجيه للقارئ للبحث في أسس تحليل البيان،يقول محمود شاكر: "والذي فعله الجرجاني في كتاب دلائل الإعجاز، هو أول تحليل للغة من حيث هي تركيب يحتمل ألوفا من وجوه الأوضاع، ودلالة هذه الأوضاع على المعاني المستورة التي يحتملها كل تركيب، ومزية كل تركيب في اشتماله على وجوه البيان القائمة في نفس المبين عنها، وبهذا الكتاب وصنوه (يقصد أسرار البلاغة) أسس الجرجاني تحليل البيان الإنساني كله، لا في اللسان العربي وحده بل في جميع ألسنة البشر، ووضع الجرجاني

هذا الأساس فلم يسبقه إليه سابق ولا لحقه من بعده لاحق في لسان العرب ولا في غير لسان العرب.

ومما يجدر ذكره هنا، أن اختيار عبد القاهر لهذا العنوان اختيار واع نابع من دقة موضوعية تمثلها طبيعة الثقافة العربية، ويعضدها السياق التاريخي للمرحلة، فقد حمل العنوان دلالات ومعان انطلاقا من صيغته التي تهدف إلى إقناع المتلقي بفكرة الإعجاز القرآني، فليس مستغربا إذن أن يظهر الأثر الديني في كتاب عبد القاهر، فقد كان هدفه الأسمى هو خدمة القرآن الكريم.

3.4 أسرار البلاغة (عبد القاهر الجرجاني 471 ه):

قرن عبد القاهر كلمة البلاغة إلى كلمة أسرار، وجعلهما عنوانا لكتابه، فهو يعلن منذ البداية أنه يريد أن يوقف القارئ على دقائق وخفايا هذا العلم الشريف، ويغوص به في أسراره وجوهره، حيث عمد فيه إلى تفصيل المسائل حتى تغدو معروفة بدقائقها وإجمالها لتصير محفوظة في العقل، مما جعل المنهج تعليميا متكاملا يأخذك بعضه على بعض.

يتشكل العنوان من مركب إضافي، وتوحي بنيته الكلية بتشويق المتلقي، فالمخزون الدلالي لنظام تركيب العنوان يرمي بمقتضاه إلى عدم الوقوف عند السطحيات، ويفضي إلى البحث عن أسرار القواعد البلاغية، وما فيها من قيم جمالية وفنية.

وفق عبد القاهر في اختيار هذا العنوان، لأن غايته الكبرى في الكتاب كانت بيان تأثير الصورة البيانية في نفس متذوقها، و اقتناص أسرارها لذلك "نجد موضوعات علم البيان كالتشبيه والاستعارة والمجاز تسود الكتاب بطابعها، حتى ذهب بعضهم إلى أن أسرار البلاغة في علم البيان بمفهومه الأخير، وليس الأمر كذلك لأنه تحدث فيه عن موضوعات لا صلة لها بعلم البيان كالسجع، والتجنيس، والتطبيق، وهي من موضوعات علم البديع، ولكن سيطرة فكرة الصورة البيانية هي التي دفعت عبد القاهر إلى التحدث عن التشبيه، والاستعارة، والمجاز بهذه الصورة المفصلة"[23].

وبالعودة إلى المادة اللُّغوية للعنوان نجدها تتطابق تماما مع مباحثه، فبعد صدور هذه التسمية عرفت البيئة الأدبية علم البلاغة، بعد أن كان المتداول هو فن البلاغة، ثم إن الأصل الذي قام عليه الكتاب هو معرفة المزية التي يفضل بها كلام كلاما، حيث لا يستطيع أحد أن يدرك شيئا من إعجاز القرآن مادام قد فقد القدرة على تمييز الكلام ومعرفة فاضله وأفضله.

4.4 مفتاح العلوم (أبو يعقوب السكاكي 626 هـ):

إن المتأمل في عنوان الكتاب يستطيع أن يتفطن لأول وهلة أن السكاكي جمع فيه أصنافا من العلوم، كما يلاحظ اشتراك عنوانه مع كتاب الخوارزمي "مفاتيح العلوم"، وكتاب طاش كبري زاده "مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم"، وقد جمع فيه مؤلفه علوم البلاغة الثلاثة (المعاني، البيان، البديع)، وعلمي النحو والتصريف، وعلم الاستدلال، وبالتركيز على مادته اللغوية فإنه مركب إضافي، يتشكل من لفظتي (مفتاح) و(علوم) وهي جملة اسمية دالة على ثبات الحركة، وفي ذلك إشارة إلى أن هذه العلوم الثلاثة مفتاح العلوم الأخرى ولهذا دلالة، أو أن يكون ما في الكتاب من هذه العلوم الثلاثة مفتاحا لها فقط وله أيضا دلالة[24].

لقد بذل السكاكي جهدا فائقا في اختيار عنوان يناسب محتوى كتابه، ويجذب المتلقين للإقبال على قراءته، وبناء على ذلك فإن هذه التسمية تحتمل "تفسيرين، الأول منهما: أن يكون المراد أن هذه العلوم مفتاح لبقية العلوم، فهذا يعني أن إتقان اللغة إفرادا في علم التصريف، وتركيبا في علم البلاغة مع صحة العقل، وضبط الفكر(الاستدلال) هو أصل المعرفة كلها ومفتاح أبوابها، فلا بد أن تكون لغتك حية حاضرة في عقلك ولسانك حتى تستطيع أن تتفهم محتوياتها الفكرية وودائع علمائها في الفنون المختلفة[25]. والثاني أن ما في هذه العلوم الثلاثة هو مفاتيحها لا غير فهذا يعني أن ما لخصه السكاكي من كلام الأصحاب وأقام كتابه عليه لا يعدو أن يكون مفتاح باب العلم وليس هو العلم والأصحاب الذين لخص كلامهم هم عبد القاهر والزمخشري وابن الخطيب الرازي، وتراث هؤلاء الأعلام الثلاثة في البلاغة مفتاح لا غير أما العلم فهو كما قال تتبع خواص التراكيب، يعني العلم هناك في البيان المصقول والتراكيب الحية ذات

الخصوصيات المستحسنة"[26]، وهكذا يتحد النص مع عنوانه في الأبعاد الدلالية الكبرى، ويتحقق الانسجام والتكامل بينهما.

ومن الملفت للنظر أن السكاكي قصد من خلال عنوان مؤلفه غرضا ساميا حقيقا بالعناية، يرجع في جملته إلى تأسيس نظرية علم الأدب، التي هدف من خلالها إلى استثمار كل المكونات النصية من (صوت وصرف ونحو ودلالة وبلاغة)، فكان مفتاحه شاملا لمستويات التركيب من أدناها إلى أقصى مستوياتها، فمفهوم الأدب عنده قائم على مجموعة العلوم المتكاملة التي يشتمل عليها، يقول مبينا هذا: "وقد ضمنت كتابي هذا من أنواع الأدب دون نوع اللغة ما رأيته لا بد منه وهي عدة أنواع متآخذة، فأودعته علم الصرف بتمامه... وأوردت علم النحو بتمامه و تمامه بعلمي المعاني والبيان"[27]، ومن ثم كان منهجه في بحث علوم اللغة العربية وترتيبها منهج فيه كثير من الصواب والدقة، ويكاد يكون كمنهج المحدثين في دراسة علوم اللغة، فهم يبدأون بدراسة الأصوات اللغوية، ويتناولون بحث مخارج هذه الأصوات وصفاتها وتمازج بعضها مع بعض، وبعدها يدرسون الصرف أي أبنية الألفاظ، وما يحدث فيها من قلب وإبدال وإعلال ثم يدرسون النحو فالبلاغة فالعروض فالقوافي"[28].

وصفوة القول فإن العنوان الذي وضعه السكاكي لمؤلفه ينحو نحو الإثارة عبر صياغته اللفظية، ويعبر بوضوح وبشكل مباشر عن الموضوع، فألفاظه تغري الباحثين بالاطلاع على المفتاح الذي من شأنه أن ييسر معالجة المباحث اللغوية والمنطقية.

5.4 نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز (606 هـ):

توحي ألفاظ العنوان للمتلقي أنه قائم على منهج الاختصار والتقصير ، وقد اعتاد القدماء في تآليفهم إذا قصدوا هذا المنحى الاقتصارَ على المقاصد الكبرى والرئيسة في العلم الذي يؤلفون فيه، مع التقليل من الشواهد، والأمثلة، والتفريعات، و بالرجوع إلى المستوى الدلالي لمفرداته نجد أن لفظ (**نهاية**) يدل على غاية الشيء وأقصى ما يمكن أن يبلغه، في حين تدل مادة (**و ج ز**) في مختلف استخداماتها اللغوية على الخفة والسرعة، وفي مدلولها الاصطلاحي على العبارة عن الغرض بأقل ما يمكن من الحروف من غير إخلال[29]، ليليها حرف العطف الذي يفيد المشاركة والمعية، وفي المقابل نجد

لفظة **(دراية)** ويقصد بها العلم بالشيء بناء على استعمال الفكر والرأي، كما وظف لفظة **(الإعجاز)** وقصد بها إعجاز القرآن الناس أن يأتوا بمثله، أي نسبة العجز إلى الناس بسبب عدم قدرتهم على الآتيان بمثله، واعتمادا على ذلك نرى العنوان متركبا من جانبين: أما الأول فهو "**نهاية الإيجاز**" وواضح من مدلوله الاقتصاد في اللفظ، بما يعني بلوغ النهاية في استخدام الألفاظ القليلة، وإدارتها في هيئة خاصة تفي بالمعنى، وأما الثاني فهو "**دراية الإعجاز**" ففيها دلالة على تجليته لوجوه إعجاز القرآن وروعته، ومعرفة خصائص المعجزة الخالدة عن سائر الكلام، والوقوف على كلام أساطين البيان فيه، وقد جاء أول مبحث بعنوان: (الفصل الأول: في أن القرآن معجز، وأن الإعجاز في فصاحته)[30].

ألف الرازي كتابه بعد أن رأى أن الوصول إلى كتابي عبد القاهر قد أصبح بعيد المنال، وأنه قد أهمل في كتابيه ترتيب الفصول والأبواب، وزاد في الكلام وأطال، فأراد أن يهذبهما ويجمع مسائلهما حتى تكون قريبة التناول، سهلة التداول، وقد أشار إلى ذلك في مقدمة كتابه، إلى هدفه وغايته من تأليفه، فقال: "ولما وفقني الله لمطالعة هذين الكتابين، التقطت منهما معاقد فوائدهما، ومقاصد فرائدهما، وراعيت الترتيب مع التهذيب، والتحرير مع التقرير، وضبطت أوابد الإجمالات في كل باب بالتقسيمات اليقينية، وجمعت متفرقات الكلم، في الضوابط العقلية، مع الاجتناب عن الإطناب الممل، والاحتراز عن الاختصار المخل"[31]، فكتابه وإن كان تلخيصا للكتابين إلا أنه امتاز بحسن التنظيم والتبويب، وجمع المسائل البلاغية المتفرقة في أبواب، وقد "اتجه بالبلاغة نحو منهاج جديد لم يعرف عند السابقين، ولم يأخذ به اللاحقون، فجعل الكتاب جملتين: بحث في الجملة الأولى المفردات وأدخل فيها شيئا من البديع التجنيس والسجع والترصيع، وكثيرا من علم البيان...وبحث في الجملة الثانية: النظم وأقسامه، كما أدخل في بحث الجملة الثانية كثيرا من مسائل علم البديع، وكثيرا من علم المعاني كالتقديم والتأخير، والفصل والوصل، والقصر، وغيرها[32]، وعلى الرغم ما في كتابه من فوائد جليلة، إلا أنه ملأه بالأقسام، وفرع من الأقسام فروعا، ثم شعب من الفروع أغصانا، وبذلك تكاثرت عنده التقسيمات، وفي تضاعيف ذلك مد الحدود والتعاريف، بحيث تحولت البلاغة إلى علم جاف، وبحيث خرجت عن وظيفتها الأصلية من تربية

الذوق وإحكام الملكة الأدبية، وكأنها لم تعد فنا من فنون الجمال، وإنما أصبحت علما من علوم اللغة مع ما يداخلها من التفلسف والمنطق وأقيسته الصارمة الحادة.[33]

نلحظ مما سبق دقة الرازي في صناعة عنوان كتابه، ومدى الانسجام الحاصل بين الاسم والمسمى، فهو معبر عن مضمونه، وملخص لمدلولاته، ويحمل في طياته كل مقاصد الإبداع، إضافة إلى بساطة تركيبه وأصالته.

6.4 منهاج البلغاء وسراج الأدباء (حازم القرطاجني 684 هـ):

إن صياغة العالم لعنوان كتابه ينبغي أن يكون دالا على ما في داخله، أو موحيا به، وقد وفق القرطاجني في اختياره، لدرجة أن المتلقي عندما يتجه بناظريه إلى محتوى الكتاب يدرك من الوهلة الأولى أنه وفق فيه إلى حد كبير.

اشتهر هذا الكتاب بهذه التسمية في أوساط النقاد والبلاغيين، وفي كثير من الأحيان يسمى اختصارا بـ **"المنهاج"**، وتتجلى أهمية صياغته في كونه يرتبط ارتباطا مباشرا بالعنصر الزماني للمؤلف، فقد أخذ العنوان منذ بداية القرن الخامس يأخذ شكلا مغايرا على مستوى الصّياغة من خلال التركيز على طوله النسبي من جهة، والاعتماد على الصنعة في بنائه و ذلك بتوظيف السجع والجناس والطباق من جهة أخرى، ويجسد منهاج البلغاء وسراج الأدباء هذه الخاصية، فالملاحظ أنه عنوان طويل يعتمد على الجرس الموسيقي، وهذا ما لم يكن موجودا في كتب البلاغة عند المتقدمين من أمثال ابن المعتز، والجاحظ، والجرجاني، والسكاكي، وغيرهم.

يحمل هذا العنوان في طياته دلالات بعيدة، تقتضي وقفة تأمل وفحص لشكله اللغوي، فكلمة (منهاج) تدل على الطريق المستقيم الواضح، وقد وظفها حازم في ثنايا كتابه، حيث تناول فيه القول وأجزاءه، والأداء وطرقه، وأثر الكلام على السامعين، وتعمق في بحث المعاني والمباني والأسلوب، وكل قسم من هذه الأقسام موزع على أربعة أبواب يسمى كل واحد منها باسم "منهاج"، ويحيل بـ (البلغاء) إلى من ملكوا زمام البلاغة فأصبحت عندهم ملكة وطبعا،بينما تدل لفظة (السراج) على الإضاءة والإبانة، و يعني بـ (الأدباء) أولئك الذين "كان تناولهم لبلاغة النص تناولا أدبيا فنيا، يهتم بالتحليل

والتعليل، والبحث عن وجوه الجمال البلاغي في إطار من الذوق [34]، ومن ثم يربط بين الأدب باعتباره عملا متفردا والبلاغة باعتبارها نتاجا جمعيا.

بينما تشكل مظهره النحوي من خبر، وهو "منهاج" مضاف لمبتدأ محذوف تقديره "هذا"، البلغاء: مضاف إليه، الواو: حرف عطف يفيد المشاركة والتبعية، ويقتضي تبعية الثاني للأول، سراج: معطوف عليه مضاف، الأدباء: مضاف إليه، وقد تركب العنوان من مركبين إضافيين، حيث أسند فيه المفرد النكرة إلى الجمع المعرفة، وعطف أحدهما على الآخر.

وأحسب أن آية الإبداع في العنوان تكمن في إبراز الثنائيات، ففضلا عن الثنائية العامة، والتي تشكل الخطاب "منهاج البغاء" و"سراج الأدباء"، نلمس ثنائيتين هما "المنهاج: السراج" المشار إليهما، وثنائية "البلغاء: الأدباء"، ويشير التركيب بين طرفيها إلى العلاقة القائمة بين الإنتاج والتلقي، بين المنهاج من حيث كونه طريقا معبدا واضح المعالم، مسطر الخطوات، وبين البليغ، ثم تأكيد الطرح بالعطف عن طريق الحرف "واو" حيث تتحول العلاقة من المنهاج إلى السراج، وهما من حيز دلالي واحد، حيث يفيد كلاهما الوضوح والبيان[35]. وقد نبه القرطاجني بأنه سلك مسلكا جديدا لم تعهده كتب البلاغة، سواء من حيث الشكل(أي في تسمية أبوابه وفصوله بمصطلحات جديدة، ويندرج ضمنها العنوان) أو من حيث المضمون، يقول مصرحا بذلك "وقد سلكت في جميع ذلك مسلكا لم يسلكه أحد قبلي من أرباب هذه الصناعة، لصعوبة مرامه، وتوعر سبيل الوصول إليه، هذا على أنه روح الصنعة، وعمدة البلاغة "[36]، وهذا الكلام إن دل على شيء فإنما يدل على إبداعه المتميز في صياغة العنوان، وكأن بنية التقابل فيه تشير على دلالة باطنية تهدف إلى التنويه بالكتاب، وإغراء المتلقين بمضمونه.كما نلمح في عنوان الكتاب أثر المحسن البديعي، وقد شاعت فكرة التزام السجع في العناوين عند المتأخرين بجرس موسيقي

5. خاتمة:

حاول هذا البحث أن يستكنه سر تعالق العناوين بنصوصها، باعتبارها جوهر كل عمل فني، وابتغى استخراج ما في هذه العتبات النصية من دلالات، وبنى عميقة،

باعتبارها تحمل رموزا وإشارات لا يمكن تجاهلها بأي حال من الأحوال، وقد أفضت هذه الدّراسة إلى جملة من النتائج نجملها فيما يلي:

*اعتني بالعنوان في التراث الإنساني عامة، والتراث العربي بشكل خاص، باعتباره من أهم العتبات النصية، فهو محيط دلالي واسع يحتاج إلى فقه مخيلاته الخفية بما يحمله باطنه من ودائع.

*اعتمد علماء البلاغة في اختيار عناوينهم اللغوية على مقاييس منها: دقة اختيار الألفاظ، عمق المعنى، حسن التوظيف، الكثافة الدّلالية، الإيجاز الشديد، قوة الحبك، تناسق الدلالة مع اللغة والأسلوب.

*لا تعكس هذه العناوين وعي علماء البلاغة بأهمية العنوان، لأنه لم يكن غاية في حد ذاته، فهو مجرد دال على المضمون، لكن علاقته المباشرة وغير المباشرة مع النص، فرضت عليهم الاعتناء ببنيته التركيبية.

*عملية الإبداع ظاهرة وواضحة في هذه العناوين، فلا أثر فيها للمؤثرات الأجنبية فيها.

*تحمل عناوين هذه الكتب دلالات كثيرة، ومعاني عميقة في علاقتها بالنص، فهي تستهدف الاتصال المباشر بالموضوع.

*** *** ***

6. الهوامش:

[1] محمد محمد أبو موسى، خصائص التراكيب، دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، مكتبة وهبة، ط6، القاهرة، 1425هـ، 2004م، ص6

[2] محمد محمد أبو موسى، المسكوت عنه في التّراث البلاغي، مكتبة وهبة، ط1، القاهرة، 1428هـ/ 2017م، ص123.

[3] إدريس الناقوري، لعبة النسيان، دراسة تحليلة نقدية، الدار العالمية للكتاب، ط1، الدار البيضاء، 1996م، ص51- 52.

[4] محمد مفتاح، ديناميّة النّص، المركز الثّقافي العربي، دط، الدّار البيضاء، المغرب، 1987م، ص72.

[5] أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 2010م، ص39.

[6] أحمد رضا، معجم متن اللغة، منشورات دار مكتبة الحياة، دط، بيروت لبنان، 1960م، مادة (عنن)، المجلد4، ص287.

[7] ابن منظور، لسان العرب، دار الصادر للطباعة والنشر، ط1، بيروت، لبنان، 2000م، مادّة "عنن"، 7المجلد، ص316

[8] المصدر نفسه، ص266.

[9] عبد القادر رحيم، علم العنونة، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، ط1، سوريا، 2010م، ص43.

[10] فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، منشورات الإختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، لبنان، 2010م، ص226.

[11] المرجع نفسه، ص226.

[12] عبد الحميد هيمة، علامات في الإبداع الجزائري، مدرسة الثقافة ولجنة الحفلات، ط1، سطيف، الجزائر، 2000، ص64.

[13] خالد حسين حسين، في نظرية العنوان (مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية)، دار التّكوين، دط، دمشق، 2007م، ص77.

[14] عبد القادر رحيم، علم العنونة، ص46.

[15] محمد لطفي اليوسفي، لحظة المكاشفة الشعرية والإطلالة على مدار الرعب، الدار التونسية للنشر، ط1، تونس، 1992م، ص18.

[16] بسام قطوس، سيمياء العنوان، عمان، منشورات وزارة الثقافة، دط، 2001م، ص25.

[17] إدريس الناقوري، لعبة النسيان، دراسة تحليلة نقدية، ص7.

[18] ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، شرح وتصحيح: عبد المتعال الصّعيدي، مكتبة صبيح، دط، القاهرة، 1389ه، ص49.

[19] عبد الرّزاق أبو زيد زايد، كتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ـ دراسة تحليل، مكتبة الشباب، دط، المنيرة، ص37.

[20] محمد إبراهيم شادي، شرح دلائل الإعجاز، دار اليقين للنّشر والتّوزيع، ط2، مصر، 1434ه/ 2013م، ص10.

[21] محمد محمد أبو موسى، خصائص التراكيب، ص6.

[22] أحمد أحمد بدوي، عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية، مكتبة مصر، ط2، مصر، دت، ص299.

[23] أحمد مطلوب، عبد القاهر بلاغته ونقده، وكالة المطبوعات، ط1، بيروت، 1393ه/1973م، ص38.

[24] محمد محمد أبو موسى، خصائص التراكيب، ص10.

[25] المصدر نفسه، ص10.

[26] المصدر نفسه، ص11.

[27] السّكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000، ص37.

[28] أحمد مطلوب، البلاغة عند السكاكي، مكتبة نهضة بغداد، ط1، 1964م، ص 66.

[29] نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق: إبراهيم السامرائي، محمد بركات أبو علي، دار الفكر للنشر والتوزيع، دط، عمان، الأردن، 1985،ص176.

[30] المرجع نفسه، ص33.

[31] المرجع نفسه، ص28.

[32] عبد القادر حسين، المختصر في تاريخ البلاغة، دار غريب للنشر والتّوزيع، ط2، القاهرة، 2002م، ص193، 194.

[33] شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، ط2، مصر، دت، ص286.

[34] حامد صالح خلف الرّبيعي، مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء، أطروحة دكتوراه، إشراف الأستاذ: عبد الحكيم حسان، السنة الجامعية: 1996 ـ 1997م ص60.

[35] خيرة مكاوي، العنوان ودلالة التلقي، مجلة حوليات التراث، العدد09، 2009، ص112.

[36] حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: الحبيب بن خوجة، دار الغرب الإسلامي، ط3، دب، 1986م، ص18.